السيد عمر رضي الله عنه كخطيب عربي

مقيت جاويد بهتي☆

Abstract

Hazrat Umar (R.A.), the second Righteous Caliph in the history of Islam, is an envious name in the field of Arab oratory which reached its zenith in the early Islamic period since it was recommended by Islam in various religious services and social ceremonies. The oratory eminence of Hazrat Umar depends largely on two factors. Firstly, he was given ambassadorial task by his tribesmen in pagan period which required a high class of oratory skills. Secondly, he was entrusted, while being in Islam, with a supreme administrative responsibility, that is Caliphate, by which he was bound to deliver his addresses on various occasions.

When we examine the speeches of Hazrat Umar from critical and literary point of view, we will find them highly distinguishable by his stylistic and rhetorical qualities. Delivered in a simplified but sober style, his oratory pieces are decorated with simplicity, clarity, comprehensiveness and religiosity.

تمهيد

لم يبلغ أي عصر من عصور الأدب العربي في قوة الخطابة ومتانة أسلوبها، وعذوبة ألفاظها مثل ما بلغ به عصر صدر الإسلام أوقل، عصر الخلفاء الراشدين المهديين. قد بلغت الخطابة غاية كمالها لأن العرب المسلمين الأوائل اتجهوا

☆ محاضر القسم العربي ، جامعة بنجاب ، لاهور.

إليهما منصرفين عن الشعر لاعتمادهم في الدين مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك في الأمور السياسية مثل قمع الفتن وتحميس الجند وما إلى ذلك(١).

ومن أشهر خطباء هذا العصر الرسول العربي صلى الله عليه وسلم وبعده الخلفاء الأربعة، وخاصة الخليفة عمر بن الخطاب الذي هو مركز اهتمامنا في هذا البحث.

وقبل أن نخوض في صلب موضوعنا يستحق بنا أن نستعرض الوضع العمومي للخطابة التي تعد أهم وأكبر أنواع النثر العربي في صدر الإسلام.

مكانة الخطابة في النثر العربي في صدر الإسلام

و بحلول الإسلام على منصة العالم العربي فقد الأدب الجاهلي كثيراً من الأغراض والمعاني مما أثر تأثيراً سلبياً على نموّ وتطور الشعر كما أقام القرآن الذي هو أول ظاهرة نثرية فنية عند العرب سلطان النثر. فقل الشعر في هذا العصر وكثر النثر (٢).

ومن بين أنواع النثر العربي الشائعة ذاك العصر ازدهرت الخطابة وتفوقت على كلها. وما كان ذلك الازدهار إلا لعوامل عديدة:

أولاً : إن ظهور الإسلام على يد النبي صلى الله عليه وسلم بين الأمة التي قد فشت فيها الأمية لم يترك أمام الرسول (ﷺ) وبعده الخلفاء الراشدين أي منحى إلا أن يأخذوا الخطابة وسيلة الإقناع.

ثانياً: إذ أن مجال القول في الخطابة أوسع بالنسبة للشعر وأن الدين الجديد قد جعل الخطابة فرضاً على معتقديه في صورة الخطب الدينية، نرى أن

منزلة الخطابة في عصر صدر الإسلام قد سمت سمواً كبيراً.(٣)

أما موضوعات الخطابة في ذلك العصر فهي: الدعوة إلى الإسلام، وتشجيع جيوش المسلمين والتحريض على قتالهم، وكشف الأمور السياسية والإدارية وما إلى ذلك.(٤)

خطابة السيد عمر رضي الله عنه

قبل أن نبدأ بذكر خطابة السيد عمر رضي الله عنه بصفاتها وسماتها، يجدر بنا أن نلقي ضوءاً على حياته في الجاهلية والإسلام والتي لعبت دوراً أساسياً في صقل مواهبه الخطابية.

نبذة عن حياته

كان اسمه الكامل هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي. فهو كناني قرشي يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأب الثامن له والسابع للرسول صلى الله عليه وسلم كعب بن لؤي خطيب قريش وحكيم كنانة. كان يكنى أبا حفص ويلقب بالفاروق لأن به فرق الله بين الكفر والإسلام.(٥)

ولد رضي الله عنه بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ونشأ في صغره نشأة قاسية. دفعه أبوه إلى المراعي يرعى إبله، لكنه امتاز من أبناء قريش بأنه كان ممن عرفوا القراءة كما كان يهتم بتاريخ قومه وشؤونهم ويحرص على الإتيان في أسواق العرب مثل عكاظ وذي المجاز، مما جعله سفيراً لقريش ومفاخراً مع القبائل.(٦)

وكان عمر رضي الله عنه قبل إسلامه من أشد رجال قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم بغضاً وعناداً. ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم لأهمية عمر البالغة في المجتمع المكي دعا الله بقوله "اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك، إما عمرو بن هشام وإما عمر بن الخطاب "فأجاب الله دعاءه في عمر.(٧)

أسلم رضي الله عنه في ذي الحجة من السنة السادسة من النبوة وهو ابن سبع وعشرين سنة،وكان عدد المسلمين يومئذ تسعة وثلاثين .قد أثر إسلامه تأثيراً قوياً في مسير الدعوة الإسلامية حيث ظهر الإسلام ودعي إليه علانية، وجعل المسلمون يطوفون ويصلون بالبيت. هاجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ولازمه في ميادين الجهاد في غزوات بدر، وأحد، وبني المصطلق، والخندق، وخيبر،ومكة،وحنين،وتبوك.(٨)

استخلف عمر رضي الله عنه بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه في سنة ثلاث عشرة من الهجرة، ولم يزل يحكم المسلمين حتى استشهد سنة ثلاث و عشرين .وكانت خلافته عشر سنين ونصفاً وأياماً (٩)

خطابة السيد عمر رضي الله عنه

إذ أن السيد عمر رضي الله عنه كان سفير قبيلة قريش في أيام الصلح والمدافع عنها في حربها، وتقتضي هاتان الوظيفتان أن يكون مكثاراً في القول .وكذلك كانت طبيعة حياته في الإسلام،قبل خلافته وبعدها،تدفعه أن يقول قولاً كثيراً في صورة الخطب .لكن ما وصل إلينا من خطبه فقليل جداً يجعل عمل الباحث صعباً بأن يوضح مكانته في فن الخطابة.

أما عدم وصول أي شيء من خطبه في الجاهلية إلينا فذلك لسببين

كبيرين. الأول: إذ أن خطبه كانت أدباً جاهلياً فلم يعبأ به المسلمون بعد الإسلام كما لم يلتفتوا إلى حفظها. والثاني: كان العرب أمة أمية يعتمدون في حفظ الأدب على الرواية دون الكتابة فضاع أكثره بموت الرواة وبعادة النسيان.

وفي إسلامه عامة وخلافته خاصة،فقد كان من المتوقع أن يحتفظ بكل صغيرة و كبيرة من خطبه فما زال رضي الله عنه يدير أمور المسلمين لعشر سنين، يعتلي المنبر كل سنة خمسين مرة تقريباً في الجمعات والأعياد والمواسم. ومع ذلك لم يصلنا عنه في هذه الفترة الطويلة إلا نحو عشرين خطبة ووصية فيالأسف!(١١)

مكانة السيد عمر رضي الله عنه في الخطابة

لكن رغم تلك القلة وكثرة الضياع، مهما يصل إلينا من خطبه يدل دلالة تامة على أن عمر رضي الله عنه كان في مكانة أسمى في فن الخطابة حيث كانت خطبه مليئة بحسن ووضوح البيان وروق الفصاحة والبلاغة كما أنها أعذب أسلوباً وأخف منطقاً وأوسع فهماً. يقول عباس محمود العقاد:

" أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات البيئة ولم تكن من صفات الذهن وكفى، فكان له فم يمتلئ بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول، ولوحظ عليه أنه كان ينطق ببعض الحروف كالضاد من كلا شدقيه وهي تنطق في الأغلب من شدق واحد وكان جهوري الصوت واضح النطق سليم الشفتين في إخراج الحروف وكتابته كلها كأنها خطب مرتجلات تقرأها فكأنك تصغي إلى خطيب لا تفقد منه إلا الصوت المسموع"(١٢)

ومما يبدو خلال قراءة حياة عمر رضي الله عنه أنه لم ينل هذه المكانة

المحمودة عليها في الخطابة إلا لأسباب تالية :

أولاً: كان عمر رضي الله عنه من القليلين جداً من أبناء قريش الذين تعلموا القراءة . ولعل سبب توجهه نحو التعليم أنه كان يهتم بتاريخ قومه، وشؤونهم، وما حدث بين القبائل من وقائع، ومفاخرات، ومنافرات، وجعلته موهبته هذه أهلاً لأنه كان سفيراً لقريش، ومفاخراً ومنافراً لها مع القبائل وفي لفظ ابن الجوزي: "كانت السفارة إلى عمر بن الخطاب، إن وقعت حرب بين قريش وغيرهم، بعثوه سفيراً، أو نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخر، بعثوه منافراً ومفاخراً، ورضوا به رضي الله عنه.(١٣)

ثانياً: كان رضي الله عنه مشتغلاً بالتجارة في الجاهلية وكسب معارف متعددة من الأماكن التي زارها، الشام صيفاً، واليمن شتاء، وكان لهذا الترحال دور هام في تحلية مواهبه في الخطابة حيث أنه منحه من دراية ومعرفة بأحوال العرب وحياتهم ما تلزم معرفته للخطيب.(١٤)

ثالثاً: كان رضي الله عنه يمارس حرفة الرعي في أول حياته قبل أن يدخل الإسلام. وكان هذه الممارسة أكسبته صفات متميزة مثل قوة التحمل، والجلد، وشدة البأس، والمصارعة، وركوب الخيل، والفروسية وما إلى ذلك، والتي ساعدته كثيراً في استخدام أسلوبه الرائع في الخطابة.(١٥)

أسلوبه في الخطابة

احتذى الخليفة عمر رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في أسلوب ونمط خطابته، فيفتتح خطبه بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلوة والسلام على محمد صلى الله عليه وسلم وآله، ثم يدخل في صلب موضوعه مستمداً من

آيات القرآن الكريم، ومعاني الأحاديث النبوية. يمتاز أسلوبه بجزالته، وبخلوه من السجع، وبراءته من الفضول والتكلف، ورصانته وقوته.(١٦) خطبه في فتوح الشام للعرب مثال رائق لأسلوبه البارع. فمثلاً يقول في خطبة له بعد الحمد والصلاة:

" الحمد لله الذي يخص بالخير من يشاء من خلقه. والله ما استبقنا إلى شيء من الخير إلا سبقتنا إليه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. قد والله أردت لقاءك لهذا الرأي الذي ذكرت، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن، (يخاطب أبا بكر) فقد أصبت، أصاب الله بك سبل الرشاد، سرب إليهم الخيل إثر الخيل، وبعث الرجال تتبعها الرجال، والجنود تتبعها الجنود، فإن الله عز وجل ناصر دينه، ومعز الإسلام وأهله، ومنجز ما وعد رسوله".(١٧)

مميزات خطابته

وإذا استعرضنا ما لدينا من خطب عمر رضي الله عنه، نجد أن خطبه تتحلى بميزات عديدة، وهي:

أولاً: أنه رضي الله عنه وإن كان يكثر القول بطبعه كانت له رغبة وميل إلى الإيجاز. ويكفينا لإثبات إيجازه في الخطابة أول خطبة خطبها حين ولي الخلافة، فقال:

" يا أيها الناس إني داع فأمنوا، اللهم إني غليظ فليني لأهل طاعتك، بموافقة الحق، ابتغاء وجهك والدار الآخرة، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك، وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم مني لهم، ولا اعتداء عليهم. اللهم إني شحيح، فسخني في نوائب المعروف، قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة،

واجعلني ابتغي بذلك وجهك والدار الآخرة. اللهم ارزقني خفض الجناح، ولين الجانب للمؤمنين. اللهم إني كثير الغفلة والنسيان، فألهمني ذكرك على كل حال، وذكر الموت في كل حين. اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك، فارزقني النشاط فيها والقوة عليها، بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك. اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى، وذكر المقام بين يديك، والحياء منك. وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني، والمحاسبة لنفسي، وإصلاح الساعات، والحذر من الشبهات. اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك، والفهم له، والمعرفة بمعانيه، والنظر في عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت، إنك على كل شيء قدير".

ثانياً: يبدو عند قراءة خطبه رضي الله عنه أنه من الذين يضعون الكلم في مواضعه، وأن العبارة عنده في الدرجة الثانية بعد المعنى. فكان إذا صعد المنبر خطيباً جعل هدفه الإعراب عما في نفسه من معان. أما الألفاظ والعبارات، فكانت تأتيه من أصل فطرته، وقوة بيانه، بدون أن يساعد بدقائق البلاغة. على سبيل المثال نقرأ خطبه هذه:

" أيها الناس، من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً. إني بادئ بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، أنا وأصحابي، ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء، فلا يلوم من رحل إلا مناخ راحلته. إني قد بقيت فيكم بعد

صاحبي، فابتليت بكم وابتليتم بي، وإني لن يحضرني من أموركم شيء فأ كله إلى غير أهل الجزاء والأمانة، فلئن أحسنوا لأحسن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلن بهم (١٩) "فنراه في هذه الخطبة واعظاً وزاجراً في نفس الوقت مما يدل على أنه هو المعنى الذي يهمه في الخطب.

ثالثاً: ولأجل اهتمامه بالمعنى قد نراه لا يلتزم بمناسبة الموضوعات بعضها ببعض، بل يعبر عما في نفسه بدون أن يجد التلاؤم والربط بين الموضوعات. فمثلاً قال مفتتحاً في بعض خطبه:

" أيها الناس إن بعض الطمع فقر، وإن بعض اليأس غنى، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وأنتم مؤجلون في دار غرور. كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحي، فمن أسر شيئاً أخذ بسريرته، ومن أعلن شيئاً أخذ بعلانيته، فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم، والله أعلم بالسرائر، فإنه من أظهر لنا قبيحاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق. فأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون".

ثم فتح موضوعاً آخر في نفس الخطبة قائلاً:

" اتقوا الله ربكم ولا تلبسوا نساءكم القباطي فإنه إن لم يشف فإنه يصف"

ثم التفت إلى جانب آخر وقال:

" أيها الناس إني لوددت أن أنجو كفافاً لا لي ولا علي، وإني لأرجو، إن عمرت فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله، وأن لا يبقى أحد من المسلمين وإن كان في بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله وإن لم يعمل إليه

نفسه ولم ينتصب إليه بدنه (٢٠).

رابعاً: إنه رضي الله عنه كما كان شديداً في الجاهلية، كان بنفس الدرجة شديد الإخلاص للدين الإسلامي، وكثير الرغبة عن الدنيا والشكر لله على نعمه. وكان أيضاً من مميزات خطبه أنه جعل هذه الفكرة جل موضوعه في الخطابة. فلعلنا لا نجد أي خطبة له إلا وقد ذكر هذا الموضوع. وما أحسن ما قال عن هذه الفكرة في خطبه:-

" الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم فهدانا به عن الضلالة، وجمعنا به من الشتات، وألف بين قلوبنا، ونصرنا على عدونا، ومكن لنا في البلاد، وجعلنا به إخواناً متحابين. فاحمدوا الله على هذه النعمة، واسألوا المزيد منها والشكر عليها، فإن الله قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم. وإياكم والعمل بالمعاصي، وكفر النعمة. فقلما كفر قوم نعمة، ولم يرجعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم وسلط عليهم عدوهم. أيها الناس إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة، وجمع كلمتها، وأظهر فلجها، ونصرها وشرفها، فاحمدوا عباد الله على نعمه واشكروه على آلائه. جعلنا الله وإياكم من الشاكرين."(٢١)

خامساً: إن خطبه رضي الله عنه متعمة بالحكم البارعة والكلم الجامعة. ويسهل لمن أراد أن يبحث عن مثل هذه الحكم و الكلمات الجامعة أن يجد كماً ضخماً منها. وهذا بعض ما نجده في خطبه من الحكم:

"إنما مثل العرب مثل جمل أنف "(٢٢)

"إنما العظمة لله، وليس للعباد منها شيء "(٢٣)

"إن بعض الطمع فقر، وإن بعض اليأس غنى "(٢٤)

"إن بعض الشح شعبة من النفاق "(٢٥)

"إن هذا الحق ثقيل مريء، وإن الباطل خفيف وبيء "(٢٦)

"ترك الخطيئة خير من معالجة التوبة "(٢٧)

"رب نظرة زرعت شهوة "(٢٨)

"شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً "(٢٩)

"من علم شيئاً فليتنفع به "(٣٠)

"قد جعل الله لكل أمر باباً ويسر لكل باب مفتاحاً "(٣١)

"من لم يكفه الكفاف، لم يغنه شيء "(٣٢)

وفي الختام أود أن أنهي دراستي بكلام الشيخ الطنطاوي الذي أجاد ما قال حين ما قال عن عمر رضي الله عنه:

"أنا كلما ازددت اطلاعاً على أخبار عمر زاد إكباري وإعجابي به. وقد قرأت سير آلاف العظماء من المسلمين وغير المسلمين فوجدت فيهم من هو عظيم بفكره، ومن هو عظيم ببيانه، ومن هو عظيم بخلقه، ومن هو عظيم بآثاره، ووجدت عمر قد جمع العظمة من أطرافها، فكان عظيم الخلق والفكر والبيان. فإذا أحصيت عظماء الفقهاء والعلماء ألفيت عمر في الطليعة. فلو لم يكن إلا فقيهاً لكان به عظيماً. وإن عددت الخطباء والبلغاء كان اسم عمر من أوائل الأسماء".(٣٣)

الهوامش

١- الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، ص١٩٢.

٢- فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي، ج١، ص٢٥٥.

٣- انظر للتفصيل :أحمد الإسكندري وغيره، المفصل في تاريخ الأدب العربي، ص١٢٩-١٣٠.

٤- المرجع نفسه، ص، ١٣١.

٥- الصلابي، علي محمد الدكتور، سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص١٥

٦- المرجع نفسه،ص ص١٦-١٩.

٧- السباعي بيومي،تاريخ الأدب العربي،ج٢ص٢٨٦

٨- الصلابي،علي محمد الدكتور،ص٤٢-٤٩

٩- المرجع نفسه، ص٥١٦

١٠- السباعي بيومي، تاريخ الأدب العربي،ج٢ص٢٨٧

١١- نفس المرجع ونفس الصفحة.

١٢- العقاد، عبقرية عمر، ص٢٠٢

١٣- الصلابي، علي محمد الدكتور، ص١٩

١٤- نفس المرجع ونفس الصفحة.

١٥- نفس المرجع ونفس الصفحة.

١٦- انظر :عبد القدير حافظ، تاريخ الأدب العربي، ص١٨٤.

١٧- صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب، ج١ص١٩٠-١٩١.

١٨- نفس المرجع، ج١، ص٢١٢.

١٩- نفس المرجع، ج١، ص٢١٧.

٢٠- نفس المرجع، ج١، ص٢١٤-٢١٥.

٢١- نفس المرجع، ج١، ص٢١٧-٢١٨.

٢٢- نفس المرجع، ج١، ص٢١٢

٢٣- نفس المرجع، ج ١، ص٢١٣

٢٤- نفس المرجع، ج ١، ص٢١٤

٢٥- نفس المرجع ونفس الصفحة.

٢٦- نفس المرجع، ج ١، ص٢١٧

٢٧- نفس المرجع، ج١، ص٢١٩

٢٨- نفس المرجع ونفس الصفحة.

٢٩- نفس المرجع ونفس الصفحة.

٣٠- نفس المرجع ونفس الصفحة.

٣١- نفس المرجع، ج١، ص٢٢٤.

٣٢- نفس المرجع ونفس الصفحة.

٣٣- الصلابي، علي محمد الدكتور،ص٥٣٠.

المصادر والمراجع

١- أحمد الإسكندري وغيره، المفصل في تاريخ الأدب العربي،دار إحياء العلوم،بيروت، ١٩٩٤م.

٢- الزيات، أحمد حسن،تاريخ الأدب العربي،دار الثقافة، بيروت،بدون تاريخ.

٣- السباعي بيومي، تاريخ الأدب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر،١٩٥٨م.

٤- صفوت،أحمد زكي،جمهرة خطب العرب، شركة مكتبة و مكبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده،مصر،١٩٦٢م

٥- الصلابي، الدكتور علي محمد،سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، دار المعرفة، بيروت،٢٠٠٥م.

٦- عبد القدير حافظ، تاريخ الأدب العربي، آزاد بك ديو،لاهور،٢٠٠٤م.

٧- العقاد، عباس محمود،عبقرية عمر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر،١٩٦٠م.

٨- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين،بيروت،١٩٨٤م.

